خواطر جغرافية

للأستاذ محمد محمد علي

إن اعتماد الناس في ممارسة الحرف على ظروف كثيرة . ظاهرة ملحوظة ؛ ففي بعض الاقاليم نجد مجال اختيار الحرف محدوداً وفي أقاليم أخرى نجده كبيرا . وفي أغلب مناطق أمريكا الجنوبية حيث يسكن بقايا من الهنود لا يزالون صيادين ، ويضيعون وقتهم في تحقيق رغبات بدائية ، وهم لا يستغلون كل موارد الثروة في بلادهم . وواضح أن الفرق عظيم بين هذه الحياة البدائية البسيطة والحياة الحديثة في نيويورك مثلا . وتتميز هذه الحياة بوجود ترابط بين مختلف الحرف ، وهذا الترابط وثيق رغبة الانسان المتزايدة وقدرته على استغلال الموارد الطبيعية .

كان الناس في الأزمنة الغابرة يعيشون في أراضيهم ، ويتبادلون مع جيرانهم بما يزيد عن حاجاتهم ، أي كان اعتمادهم على الأرض التي يقطنونها . فيمكن القول بوجه عام لمن النشاط التجاري ليس بجديد . فالحضارات القديمة مثل الحضارة المصرية والبابلية في العالم القديم ، وحضارة الأزتك والمايا والانكا في العالم الجديد ، أقامت نظما في التبادل مختلفة . وبانتقال الحضارات من غرب آسيا إلى البحر المتوسط وشمال غرب أوربا حدثت تغييرات ملحوظة في النظم الاقتصادية . ولقد كان الفينيقيون والإغريق والقرطاجيون والرومان يتاجرون في العطور والأحجار الكريمة ومنتجات الغابات ، ووصلوا إلى الشواطىء الغربية والشمالية للبحر الأسود فضلا عن قيامهم بدور الوسيط بين تجارة الشرق والغرب . فلما كسدت التجارة القديمة في البحر المتوسط جاء الصليبيون في أوائل العصور الوسطى واشتغلوا بالتجارة ، ثم قامت جنوة والبندقية وأصبح لهما أهمية تجارية عظمى ، وكانت أساطيلهم تمخر عباب كل أجزاء البحر المتوسط . ومع أن سكان أوربا قد عرفوا كثيرا من المنتجات التي كانت مجهولة لديهم من قبل ، فان التجارة لم تكن نشيطة إذا قورنت بما حدث في عصر الاستكشاف ، والانقلاب الصناعي . وفي أوائل القرن الخامس عشر واجهت مجموعات المدن التجارية صعوبات متزايدة في الحصول على منتجات الشرق ، إذ أن استيلاء الترك على مصر والقلاقل السياسية سببت ركودا في التجارة . فولى تجار أوربا وجوههم شطر الاطلنطي لعله يؤدي إلى طريق مضمون لتجارة الشرق . وأول من فعل ذلك الاسبان والبرتغال ثم الانجليز والفرنسيون والهولنديون . وعلى الرغم من الحروب فقد فاضت خزائن الأوربيين بالذهب والفضة . ثم كانت بذور النهضة الصناعية فترك الصناع اليدويون منازلهم إلى المصانع ، وبعد أن كانت الريح والمجاري المائية مصدر الطاقة أصبح الفحم هو المصدر ثم الكهرباء . وقد أدى الانقلاب الصناعي إلى التخصص والتركز ، وأدت التغييرات التي صحبته إلى زيادة السكان في العالم من ٥٠٠ مليون نسمة سنة ١٧٠٠ إلى أكثر من بليونين في الوقت الحاضر . ولا شك أن أساس الزيادة هو التقدم والارتقاء من جراء التبادل والاحتكاك .

***

اكتشف الانسان الموارد الطبيعية واستطاع أن يستغلها ؛ ولم تتغير فقط نواحي نشاطه بل إن البيئة الطبيعية اعتراها التغيير ؛ فمثلا تستجيب الحياة النباتية والحيوانية لتذبذبات المناخ والاختلافات الجوية . ويمكن للانسان أن يتغلب على الصعوبات الطبيعية ، فهو يجفف البرك ويروي الصحاري ويخصب التربة الجديدة ، بل ويستنبت النباتات في البيوت الزجاجية ويشق القنوات ويفتح الممرات ويطير في الهواء ! . ولئن كان هذا يكشف عن قدرة الانسان على تغلبه على البيئة فان من الضروري أن يكيف نفسه مع ظروفها . فالمناطق المدارية والتندرا لا تزال كما هي بالرغم من كل ما أمكن الانسان أن يفعل . إذ يستحيل استنبات الموز في مناطق التندرا (الصحاري الجليدية) أو رعي الرنة في الغابة الاستوائية . وإذ يعتبر الاسكيمو نفسه سعيد الحظ إذا حصل على غذاء كاف ومأوى دفيء ، فان ساكن المناطق المدارية يكافح ليحمي نفسه من الوحوش الضارية والحشرات المؤذية والحرارة المرتفعة والرطوبة العظمى .

إن قدرة الانسان على الاستفادة من الموارد الطبيعية في تغير ؛ ففي الأيام الخالية كانت المجاري المائية مورد الغذاء لكنها كانت تعوق حركات السكان ، ثم أصبحت طرقا هامة فصادر للري